

السبق الفلسفي اليوناني
تفسيره ودلالاته
« رؤية جديدة »

الأستاذ الدكتور
عبد المعطي محمد بيومي
الأستاذ بقسم العقيدة والأديان

يشتمل هذا البحث على الأمــور الآتيــة :

* تحديد المسألة التي يراد معالجتها ، وهي : لماذا سبق اليونان في الفلسفة أمم الشرق؟ .
* التصورات والدراسات السابقة في تناولها، وفحص هذه التصورات وتحليلها ونقدها .
* الفرض الذي نراه تفسيراً لموضوع الدراسة، وسبباً في هذا السبق .
* الأدلة والبراهين التي تؤكد رأينا الذي استخلصناه والفرض الذي فرضناه .
* النتيجـة التـي يسـوقنا البحـث الموضـوعي إليهـا .
* دلالات هــذه النتيجــة ومغــزاها .

● *تحــــديد موضــــوع البحـــــث :*

ظهور الفلسفة العقلية الخالصة في بلاد اليونان غير ممزوجة بالأفكار الدينية عكس ما كان موجـوداً لدى أمم الشرق القديم مصر وبـابل وفارس والهند والصين، أولئـك الذين كانت فلسفتهم تغلب عليها التأثيرات الدينيـة حتى لا نكاد نجد لهم فلسفة عقلية محضة في تفسير وجود الانسان والكون والله وتنظيم العلاقة بين هذه الوجودات الثلاثة تنظيماً عقلياً ينبع مـن الانسان لمعرفـة نفسه وما يحيط بـه حتى يصل إلى فهـم الكون كله متجـاوزاً أفق الكون الرحب إلى ما وراء الكـون، ليرى وراءه إلهاً إن كان من المثاليين ، أو لا يستطيع أن يرى وراءه إلهاً إن كان من الماديين شيء خارج عنه في نظر الماديين والملحدين .

فظـاهرة سبـق اليونـان في النظر العقلي المجـرد مـن التأثيرات الـدينية أو المحـاولات التجريبيـة كان وسوف يظـل محل بحث عنـد المدارس والتيارات الفلسفية المختلفـة حيث يحاول كل منهـا أن يفسره تفسيراً يساعد على الوصـول إلى الحقيقة في فهم التراث اليـوناني وصلته بتراث الحضارات الإنسانية العديدة .

وليس البحث في هذه الظـاهرة ترفاً فكرياً يمكن الاستغناء عنـه إزاء أولويات أخرى ربما تقدمهـا عليه دواعي معـاصرة في البحث في مسائل أكثر الحاحاً تفرضهـا طبيعة التغير المعاصر .

ذلك أننا نـرى أن طبيعة التغير المعاصر التي يشهد فيها انهيـار حضارة أو تيار إلحادي من تيارات الحضـارة المادية وصمود تيار آخـر من تيارات هذه الحضـارة، يقوم على العقل وحده، ويعـزل الدين عـن الواقع، ممـا يجعلنا أمام سـؤال عميق : هل تستطيـع الحضارة العقلية، بـالعقل وحده دون مـؤثرات دينية أن تقدم لـلانسان ما يحتـاجه في فهم الـوجود

وتنظيم الحياة ؟ .

وإذا كان الأمر كذلك : فهل تستطيع الحضارة الغربية التي تستمد في توجهها العقلي المنعزل عن الدين من أصولها اليونانية أن تصمد طويلاً ؟ أو أن انعزالها عن الدين يفقدها عنصر الضمان والاستمرار ؟ هذا على الناحية الغربية .

أما على الناحية الشرقية فإن السؤال سيكون هو : هل تستطيع الأمم الشرقية أن تنهض مستقلة بفكرها وهي لا تملك تراثاً عقلياً خالصاً يبعدها عن الدين ويطلق ملكاتها بالعقل وحده ؟

أو أنه سيتعين على هذه الأمم إن أرادت النهوض أن تأخذ من التراث الغربي التوجه العقلي الخالص لأنها - كما يقال - لا تملك مثل هذا التراث العقلي الخالص، وكل ما لديها من تراث فهو قائم على الدين مستمد منه أو مشوب به على الأقل .

وهل تستطيع الأمم الشرقية أن تنحو منحى عقلياً للخلوص إلى النهضة؟ وهل تملك الملكات العقلية اللازمة لذلك ؟

وهل هذا ضروري لها ؟ هل لابد من التحرر من الدين والاعتماد على العقل، وهل تستطيع ذلك ؟ أو أن هناك فرقاً بين عقلية الشرقي والغربي وقدراته الذهنية على التفكير ؟

فالمسألة أذن ليست بعيدة عن الواقع المعاصر وعن ذلك القلق المضني الذي يشغل بال الجميع للتقدم نحو دور جديد لأمم الشرق لتحديد طبيعة هذا الدور بالعقل وحده أو بالعقل والدين معاً وتحديد قدرة أمم الشرق على القيام بهذا الدور على أي نحو كان سواء كان بالدين أو بالعقل أو بهما جميعاً .

فإن كان سبق اليونان إلى النظر العقلي الخالص راجعاً إلى طبيعة العقل اليوناني نفسه وعجز الشرقي عن التفكير العقلي الخالص فإن معنى ذلك أن الشرقي لن يستطيع الاعتماد على نفسه في القيام بالاعتماد على العقل لأن عقله سيكون قاصراً ولن يسعفه حينذاك .

أما اذا كان البحث سيؤدي إلى أن سبق اليونان في النظر العقلي ليس راجعاً إلى قصور في العقلية الشرقية فإن الأمل على اعتماد الشرقيين على ملكاتهم الذهنية وقدراتهم العقلية سيفتح مجالاً للتفكير في المستقبل باستخدام العقل .

على أن ذلك سوف يفرض علينا في سياق البحث أن نقوم الدور اليوناني نفسه، ذلك الذي كان أصلاً بعيداً رائداً في تجربة عزل العقل عن الدين في تفسير الكون والحياة وتنظيم

الوجود الإنساني وهل نجح هذا الدور الأصل حتى ينجح المشروع الذي هو فرع منه وهو المشروع الغربي للحضارة الذي استخدمه. وهل يستمر ؟

وهكـذا سيؤدي البحـث إلى :

١ - تحديـد أهمـية دور العقـل مـع الديـن.

٢ - تحديد قـدرة الشرقي على النهـوض، وعلى أي أسس يكـون هذا النهـوض بين العقل والدين.

٣ - توقع مستقبل الحضارة في طورها الذي يسيطر اعتماداً على العقل معزولاً عن الدين فيما سمى بالعلمانية.

● *التصـورات السـابقة في تفسـير هـذه الظاهـرة ؟*

وتتركز التصـورات السابقة لتفسير ظاهـرة سبق اليونان الفلسفـي على أمم الشرق في أربعة تصورات أساسية :-

أ - تصـور كان يـرجع سبـق اليونـان في الفلسفة إلى أن العنصر الآري يتفـوق على العنصر السـامـي بـدقـة التفكير والقـدرة على التحليـل، وأن السـاميين مـن أمـم الشرق لا يستطيعون التغلغـل بالنظـر في أعماق الأشياء ولا يدركـون منها إلا ظـواهرهـا فقط، ولذلك لم يكن في مقدورهم أن ينتجوا فلسفة عقلية ترقى إلى فلسفة اليونان.

ب- ولكن هذا التصور لم يرق لآخرين فذهبوا إلى أن التجربة شغلت أمم الشرق عن النظر العقلي، ولذلك برع المصريون مثلاً في العلم التجـريبي كالنحت والطب والهندسة ولم يبرعوا في الفلسفة العقلية، وكذلك برع الهنود والبابليون والفرس في فنون من العلوم التجريبية دون أن تكون لهم فلسفة للكون والحيـاة والإنسان تخرج عن دائرة الدين هنا أو هناك.

جـ- ولم يستحوذ هذا التصور هو الآخـر على رضا كثير من الباحثين ولم يحز اقتناعهم ومن ثـم راحوا يتلمسـون تفسيراً آخر غير هـذا أو ذاك فـذهب البعـض إلى أن طبيعة بـلاد الشرق شغلتهم بـالصراع من أجـل العيش والكفـاح في سبيله دون أن تمكنهـم من أن تكون لهم فلسفـة نظريـة إذ كانـت هذه الفلسفـة من قبيـل الترف الفكري الـذي يجد الانسـان متسعاً لـه بعد وفـرة العيش وسعـة الـرزق، أما والصراع مـن أجل العيـش والكفاح من أجل الحصول على الرزق يملأ وقت الإنسان فلا وقت يبقى للفلسفة ولا

سعة من الذهن والعيش تدع الفرصة للنظر والتفكير.

د - وكما هو واضح فإن التفسيرات السابقة تنطلق من مسلمة أن اليونان سبقوا فعلاً أمم الشرق بالتفلسف وأن الشرقيين لم يعرفوا هذا النوع من الفكر المجرد قبل اليونان وأن أصحاب هذه التفسيرات راحوا يفسرون كما رأينا هذه الظاهرة على أنها مسلمة من مسلمات البحث العلمي والفلسفي.

هـ - لكن آخرين لم ينطلقوا من هذا المنطلق ، فلم يسلموا أن أمم الشرق أتى عليها حين من الدهر لم تعرف السبيل إلى النظر العقلي إلى أن جاء اليونان فرادوا السبيل إليه ومهدوه لغيرهم من الأمم.

وإنما ذهب هؤلاء إلى أن الشرقيين كانت لهم فلسفتهم وطريقتهم في الفكر وأنه ليس صحيحاً أن اليونان سبقوا غيرهم في ذلك.

وهكذا يبدأ هذا الفريق من الباحثين بإنكار الظاهرة نفسها موضوع البحث ويتلمسون من ألوان النظر العقلي ما يثبت مدعاهم من أن الشرقيين عرفوا الفلسفة قبل اليونان أو معهم على الأقل دون أن يكون لليونان عليهم في ذلك أدنى فضل أو امتياز.

ولكي نصل إلى الحقيقة - في اعتقادي - لابد من فحص وتحليل هذه التفسيرات ونقدها بميزان النقد الموضوعي لنصل من هذا النقد إلى تفسير مقبول.

أ - فالتفسير الأول الذي يرد المسألة إلى العنصرية ويقسم العقل بأقسام الأجناس ويجعل حظ الأمم من التفكير والقدرة على النظر ضربة لازب حسب الجنس فللآريين قدرات تفوق على الساميين ولهؤلاء صفات وخصائص تنبو عنها صفات الآريين وخصائصهم، تفسير يخضع الحياة الفكرية للمفاهيم الطبقية : هو تفسير مردود ؟

والعلم الحديث خاصة علم التشريح أول ما يرد هذا التفسير فلم يثبت العلم حتى اليوم خصائص عضوية أو تشريحية لجنس يتفوق أو حتى يختلف بها على جنس آخر بتشكيل المخ وسائر الجهاز العصبي . وأدوات الإدراك لا تختلف في جنس عن جنس. ولا يتميز بها فصيل من بني الانسان على فصيل سواه.

ولعل أبرز من نقل عنهم هذا الاتجاه العنصري في التفكير هو الفيلسوف الفرنسي «أرنست رينان» الذي رأى أن الجنس السامي ليس مؤهلاً للفلسفة لأنها ليست من طبيعته، يقول :-

« ما يكون لنا أن نلتمس عند الجنس السامي دروساً فلسفية، ومن عجائب القدر أن

هذا الجنس الـذي استطاع أن يطبع ما ابتدعـه من الأديان بطابع القـوة في أسمى درجاتها لم يثمر أدنـى بحث فلسفي خاص، ومـا كانت الفلسفة قـط عند الساميين إلا اقتباسـاً صرفاً جديباً وتقليداً للفلسفة اليونانية »[1].

ويقــول :-

« يبدو أن التفكير الفلسفي للبحث عن الحقيقة كـان وقفا على الجنس المسمى بالهندي الأوربي، الذي يمتد مـن الهند إلى أقصى الغرب، وإلى أقصى الشمال، والـذي كان يبحث منذ أقدم العصور إلى الآن في تفسير الخالق والإنسان والعالم تفسيراً عقلياً، وقد ترك وراءه في كل مراحل تاريخه آثاراً فلسفية خاضعة لنواميس تطور منطقي.

أما العرب الساميون فإنهم بدون تفكير أو تـدليل - أي بدون فلسفة - قد وصلوا إلى أصفى وأنقى صورة دينية عرفها التاريخ »[2].

ويعلـل « رينان » تفـوق الجنس الآري على الجنس السـامـي في الفكر والفلسفـة إلى التفوق العنصري في أشياء أخرى فيقول :-

« الجنس السامي أدنى من الجنس الآري اذا قورن به، ذلك أن الجنس السامي ليست له هـذه الروحـانية التـي عرفهـا الهنود والألمان، وليـس للجنس السـامي هـذا الإحساس بالجمال الذي بلـغ حد الكمال عند اليونان، وليست لـه الحساسية الرقيقة العميقـة التي هي الصفة الغالبة عند الكلتيين أي سكان فرنسا والبلجيك »[3].

بــل بــلغ الأمــر عــند رينــان أن قــال :

« العرب تنقصهم الـدهشة التي تدعو إلى التساؤل والتفكير، لأن اعتقـادهم في قدرة الله يجعلهم لا يدهشون لشيء »[4].

وهكذا يصـل الأمر عنـد هذا التيـار الذي يمثلـه « رينان » إلى أن العـرب والساميين والشرقيين عموماً لم ينتجوا فلسفة، قبل اليونـان وليس هذا فحسب، وإنما هم غير قادرين أصلاً على التفكير والتساؤل لأن فهمهم غليظ وهم متبلدون لايدهشون لشيء والسبب في ذلك كله - كما يزعم - أنهم أدنى من الجنـس السامي وأنهم يؤمنون بقدرة الله وهذا الإيمان جعلهم لايدهشون لشيء ومن ثم فهم غير مؤهلين أصلاً لإنتاج فلسفة ما.

وهذا كـلام يرده تـاريخ الفلسفة ذاتـه، فالسـاميون عمومـاً لهم فلسفاتهم التـي تتفق أحياناً وتختلف أحياناً أخرى مع الفلسفات الآرية.

بل إن موضوعات الفلسفة الرئيسة في المعرفة والـوجود كانت هي نفسها موضوعات

التفكير عند هؤلاء وهؤلاء مع الاتفاق والاختلاف بحيث لا يمكن القول إن هذه نقل عن تلك ولا ترديد لها بحال من الأحوال.

فالتفكير في الألوهية مثلاً موجود عند اليونان وعند الهنود وعند المصريين القدماء ولكل من هؤلاء وهؤلاء نظرتهم إلى المسألة ومحاولاتهم لفهمها والوصول فيها إلى نتيجة يرتاح لها العقل ولو إلى حين، ولم يؤثر نقل كامل أو ترديد متطابق لفلسفة هؤلاء وهؤلاء.

حتى في المسائل التي تشابهت فيها أقوال الفلاسفة الإسلاميين وأقوال فلاسفة اليونان في مسائل العلم الإلهي ومسألة صدور العالم عن الذات الإلهية كانت للفلاسفة الإسلاميين فيها إضافات جديدة على نظرة اليونان، ولم تكن لتخطر على بال أرسطو ذاته.

فرغم التشابه بين نظرتي أرسطو وابن سينا فإن فكرة ابن سينا عن العلم الإلهي وأنه سبحانه لايعزب عنه - كما يقول - مثقال ذرة في السموات وفي الأرض دليل على إضافة اسلامية جديدة لم يقل بها أرسطو مما يثبت أصالة الفكر السينوي في هذه النقطة رغم استفادته من فكر اليونان، لكن الاستفادة شيء يختلف عن الترديد الكامل والتطابق التام، مما يزعمه أرنست رينان.

على أنه ما من أمة من الأمم شرقية أو غربية إلا وكانت لها فلسفتها الخاصة بها بحيث لم توجد أمة بلا فلسفة طالما كانت الفلسفة هي النظرة إلى الحياة والوجود والتعامل مع الكون وتقرير المصير.

بل إنه مما لاشك فيه أن كثيراً من فلاسفة اليونان أنفسهم لم تظهر فلسفتهم ولم ينضجوا هذه الفلسفة إلا بعد أن تعلموا في مصر وفي الإسكندرية على وجه الخصوص، من هؤلاء رواد الفلسفة الطبيعية في اليونان فكان منهم جالينوس وطاليس وفيثاغورس وديمقريطس. كل ما هنالك أن فلسفة الأمم الشرقية، لم تعن بتفسيره وايضاح سببه في هذا البحث. بقدر ما يعنى بابراز أن لهؤلاء فلسفتهم التي لا تقل أثراً في الفكر العالمي عن فلسفة اليونان.

يقول الأستاذ يوسف كرم :

« ... ولقد وجد العقل مع الإنسان وبقى هو هو في جوهره واستخدمته الأمم الشرقية في الماضي السحيق فاستحدثت الصناعات والعلوم والفنون ونقلتها لليونان فأغنتهم عن بذل الجهد والوقت في استكشافها بأنفسهم.

وفضلاً عن العلوم والفنون نجد عند الأمم الشرقية القديمة قصصاً بيئية، وأفكاراً في

العلم والحياة، إذا اعتبرنا موضوعها ومغزاها رأيناها حقيقة بأن تسمى فلسفته، فقد نظروا في أسمى المسائل مثل الوجود والتغير، والخير والشر، والأصل والمصير، فكان التوحيد والشرك، وكانت الثنائية الفارسية، وكانت وحدة الوجود عند الهنود، وكان غير ذلك.

ولم تخرج الفلسفة فيما بعد عن هذه النظريات الكبرى، بل قد نستطيع أن نجد لكل فكرة يونانية مثيلة شرقية تقدمتها، أو أصلاً قد تكون نبعت منه » [٥].

وإذا كان الأستاذ يوسف كرم يعلق على ذلك كله بأننا إذا لاحظنا صيغة القول ومنهج البحث عند الشرقيين لم ندع هذا الضرب من العلم والمعرفة والتفكير علماً وفلسفة بل دعوناه، قبل العلم والفلسفة فإن علومهم جميعاً من حساب وهندسة وفلك وغيرها لم تكن تعدو ملاحظات تجريبية أدت إليها حاجات عملية وقتها تعثر وتردد يدلان على أنه لم يكن لدى أصحابها أية فكرة عامة عن المبادىء والعلل والبرهان » [٦].

فإننا نقول إننا لا نمانع في أن تكون الفلسفة العقلية الخالصة غير المتأثرة بأية عناصر دينية من نصيب اليونان وإن المعرفة الشرقية احتوت على جميع عناصر الفلسفة اليونانية دون أن تبعد عن الدين وهذه هي الظاهرة محل الدراسة لكننا نمانع في أن تعرى الأمم الشرقية، من أي تفكير فلسفي أو تنسب إلى الجهل بالمبادىء الفلسفية والحقائق التي ظهرت فيما بعد على يد اليونان لا لشيء إلا للتعصب الجنسي.

وربما كانت غلبة الجنس الآري على الجنس السامي في القرن الماضي وأوائل هذا القرن العشرين إبان حركة الاستعمار الذي غلب فيه الغرب على الشرق سبباً في رواج هذه الفكرة العنصرية مع أن رواجها نفسه في جنس ما يدل على أن هذا الجنس على استعداد لتقبل أفكار غير فلسفية ولا مبررة تبريراً منطقياً.

يقول الدكتور أحمد ابراهيم الشريف: إن « الطريف في هذه الفكرة أنها هي نفسها ليست من الأفكار الفلسفية أو العلمية التي تخلو من التسليم بغير سبب معقول.

فإن العقل المطبوع على الفلسفة والبحث المجرد لا يقبل أن يتركب العقل الإغريقي طبعاً وأصلاً على غير التركيب الذي استقر في السلالات البشرية الأخرى، ولا يستريح إلى هذا الحكم بغير علة يرد إليها هذا الاختلاف العجيب في أصل التركيب » [٧].

صحيح أن هناك اختلافات بين الأجناس تخضع للعوامل البيئية والعوامل العرقية والعوامل الاجتماعية وتؤدي إلى وجود صفات خاصة تنتشر في بعض الأجناس دون بعضها مثل اللون وطريقة المعاش والتفكير وتنتقل عن طريقة الوراثة جيلاً بعد جيل.

وقد أشار إلى ذلك ابن مسكويه [٨] وابن خلدون [٩] ومن جاء بعدهما علماء الأجناس مما يؤكد أن لكل جنس صفات وخصائص تختلف عن صفات وخصائص الأجناس الأخرى.

لكن حقيقة هذه الاختلافات بين الأجناس في الألوان والطبائع وطرق التفكير والعمل محكومة بحقيقة أخرى أساسية في هذا الموضوع وهي أن هذه الاختلافات موقوتة وأنها مرهونة بأسبابها التي أورثتها وأدت إليها فإذا زالت هذه الأسباب زالت آثارها .

وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك حيث ذكر أنه إذ أسكن جماعة من السودان في الأقاليم المعتدلة أو الباردة فانه « تبيض ألوان أعقابهم بالتدريج » وبعكس ذلك إذا سكن جماعة من أهل الشمال بالجنوب « تسود ألوان أعقابهم » . [١٠]

فليست هناك خصائص ثابتة أبد الدهر لا تنفك عن جنس من الأجناس بحيث تفضل هذا الجنس على غيره أبداً .

ولذلك سفه ابن خلدون رأى القائلين بثبات سمة من السمات على جنس من الأجناس فقال :

« وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه » [١١] وسمى ابن خلدون ذلك خرافات قصاص .

ويقول : « فتعميم القول في أهل جهة معينة من جنوب أو شمال بأنهم من ولد فلان المعروف لما شملهم من نحلة أو لون أو سمة وجدت لذلك الأب ، إنما هو من الأغاليط التي أوقع فيها الغفلة عن طبائع الألوان والجهات ، وأن هذه كلها تتبدل في الأعقاب ولا يجب استمرارها ، سنة الله في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلاً » [١٢] .

وإذا لم تكن هناك أفضلية دائمة مستمدة من خصائص ثابتة لجنس من الأجناس لاتتحول عنه أبداً بل الأمر كله يرجع إلى خصائص مؤقتة مسببة عن عوامل مؤقتة فقد يقال إن سبق اليونان الفلسفي على أمم الشرق رجع إلى مثل هذه الخصائص التي جعلت أمة اليونان تسبق أمم الشرق في التفكير العقلي الخالص .

فإننا نقول : إن الذي ننفيه هنا ليس سبق اليونان في الفلسفة لخصائص وجدت عندهم جعلتهم يسبقون غيرهم في التفكير العقلي المجرد فهذا أمر ثابت لا مشاحة فيه ولكننا نبحث هنا عن أسبابه .

إنما الذي ننفيه هو الزعم بأن أمم اليونان سبقت غيرها في النظر العقلي المجرد لخاصية ثابتة وميزة عنصرية تفوق بها الجنس الآري على غيره من الأجناس.

وقد أثبت البحث إلى الآن أن خصائص الأجناس وان كانت حقيقة علمية واقعة إلا أن هذه الخصائص ليست أبدية لشعب من الشعوب ولا هي ثابتة بثبوت الدهر يتفوق بها جنس أبداً على غيره من الأجناس.

على أننا نستطيع أن نقول بعد ذلك كله إن تفسير السبق الفلسفي اليوناني على أمم الشرق بتفوق الجنس الآري لا يكفي في التعليل، لسبب بسيط. وهو أن الجنس الآري يشمل الهنود كما يشمل اليونان فلماذا سبق اليونان في الفلسفة الشرقيين وفيهم الهنود الذين يماثلونهم في الجنس نفسه.

لو كانت المسألة تفوق الجنس الآري لظهرت الفلسفة عند الهنود مع اليونان ولكان للهنود في فلسفتهم طابع يختلف عن طابع أمم الشرق في التفكير.

لكن الحقيقة التاريخية أن طابع الفلسفة الهندية يتماثل مع طابع الفلسفات الشرقية عموماً ويختلف مع طابع الفلسفة اليونانية فالفلسفة الهندية نشأت في أحضان الدين تخدمه وتمتزج به شأنها في ذلك شأن الفلسفة المصرية والبابلية والفارسية وسائر الفلسفات الشرقية أما الفلسفة اليونانية فهي فلسفة تأوى إلى العقل وتنأى عن الدين.

يقول الأستاذ أحمد أمين:

« إن للفلسفة الهندية أوصافاً خاصة تميزها عن الفلسفة اليونانية ذلك أن الفلسفة الهندية امتزجت امتزاجاً تاماً بالدين واصطبغت صبغة شعرية لا صبغة علمية لم تتدرج من المحسوس إلى المعقول... ولم تنهج المنهج العلمي الذي يتطلب التعبير بالحقائق لا المجازات مثال ذلك أن تقول: إن العالم كله مشتق من شيء واحد أبدي أزلي لا يقبل التغير يسمى « برهمن »، ثم اذا شرحت كيف تخلق هذا العالم من برهمن قالت: " كما تتشكل الحديدة المحماة في النار إلى آلاف من الأشكال... فأنت ترى أن هذه تشبيهات ترضى الخيال ولا ترضى العقل... ولكن الفلسفة اليونانية في مثل هذه المواقف لم تسلك هذا السبيل وحاولت جهد طاقتها أن تعبر التعبير العلمي وإن كان في المدرسة الأفلاطونية شيء من الشعر.

كذلك مما تخالف به الفلسفة الهندية، الفلسفة اليونانية، أن الأولى حددت الغرض من الفلسفة بخدمة الإنسان، بينما الفلسفة اليونانية تتطلب المعرفة للمعرفة فالباعث

الأساسي للفلسفة عند الهنود شوق الإنسان للخلاص من آلام هذا العالم ومصائبه، وعند اليونان الباعث الأول على الفلسفة العجب. عجب من مظاهر العالم فأراد أن يتعرفها فتفلسف»[١٣].

وهنا نتساءل: من أين هذا الخلاف بين الفلسفة اليونانية والفلسفة الهندية وهما يرجعان إلى جنس واحد هو الجنس الآري الذي يضم الهنود واليونان معاً إن لم تكن هناك أسباب أخرى غير تفوق الجنس الآري سببت سبق اليونان في النظر العقلي الخالص.

وهكذا في ختام مناقشة هذا التصور العنصري نستطيع أن نقول: إنه من الظلم إذن لأمم الشرق، ومن الخطأ في حقها في نفس الوقت رميها - تعصباً وعنصرية - بأنها لا تقدر على شيء من النظر العقلي.

ب- وإذا كان التصور الأول (إرجاع السبق الفلسفي اليوناني إلى أسباب عنصرية) خطأ، فماذا عن التصور الثاني الذي يذهب إلى أن التجربة هي التي شغلت أمم الشرق عن النظر الفلسفي الخالص.

وفي اعتقادي أن هذا التبرير هو الآخر لا يصلح لتفسير الظاهرة لأنه هو نفسه يحتاج إلى تبرير. فاذا كانت التجربة هي التي شغلت أمم الشرق عن السبق الفلسفي فلماذا؟ لماذا شغل الشرقيون بالعمل عن النظر؟

لقد انتهينا إلى أن المسألة لا ترجع إلى الجنس فالهنود آريون واليونان آريون. فلماذا شغلت التجربة الهنود ولم تشغل اليونان؟ فهل ترجع إلى الأرض؟

إن بلاد اليونان لا تقل خصوبة عن بلاد الهند فاذا كانت خصوبة الأرض واحتواؤها على الأنهار وقابليتها للزراعة في بلاد الهند هي التي يمكن أن تكون قد شغلت الهنود عن النظر ودفعتهم إلى شق مجاري الأنهار وإقامة السدود والمراصد الفلكية التي ترصد الرياح والأمطار، فإن هذه الطبيعة لا تختلف كثيراً عن طبيعة البلاد اليونانية بما فيها من جزر خصبة وتلال يانعة فاذا كانت الطبيعة هي التي شغلت الهنود عن السبق الفلسفي فقد كان يمكن أن تشغل اليونان كذلك.

وليس الأمر خاصاً بالهنود في هذا الصدد فطبيعة الأرض في الهند لا تختلف عنها في بلاد فارس أو بابل حيث خصوبة الأرض وتعدد الأنهار خاصة في بلاد ما بين النهرين وخصوبة أرض العراق بين دجلة والفرات مما كان أساساً لقيام حضارات مزدهرة عبر التاريخ.

وإذا كانت الأرض في بلاد اليونان أو الهند أو فارس وبابل لا تختلف عن بعضها بعضاً فهي جميعاً لا تختلف عن مصر حيث كان نهر النيل سبباً في الخصب والماء وازدهار الحضارات فليست الطبيعة إذن سبباً لأي سبق فلسفي لأن اليونان لا تختلف في طبيعتها عن هذه البلدان فلا تصلح سبباً لتعليل الظاهرة مدار البحث .

جـ - وإذا كانت التجربة لا تصلح تعليلاً سلبياً لسبق اليونان فإن التصور الثالث الذي يقوم على أن الصراع من أجل العيش في بلاد الشرق هو الذي أخر ظهور الفلسفة عندهم عن ظهورها في اليونان .

وهكذا نجد أنفسنا أمام تفسير مختلف تمام الاختلاف ويتناقض مع التصور السابق .

فإذا كانت التجربة قد دفعت أمم الشرق إلى العلوم التجريبية من هندسة وفلك وتنجيم للانتفاع بالطبيعة الغنية بالثروات وتوجيهها الوجهة التي تهيء للإنسان في الشرق سبل الانتفاع بهذه الثروات .

فإننا أمام تصور آخر مختلف يعزو تأخر الفلسفة في الشرق إلى الصراع من أجل العيش والمكابدة في سبيل الحصول على الرزق مما لم يجدوا معه فراغاً ولا فسحة من الوقت للنظر العقلي والتأمل .

وقد نقل الدكتور محمود حمدي زقزوق عن الدكتور ابراهيم بيومي مدكور أن أمم الشرق وإن كانوا قد عرفوا التفكير العقلي في الفلسفة والأخلاق « فان اهتمامهم كان على وجه الخصوص بالأخلاق العملية التي مرنوا عليها في مجتمعاتهم واقتضاها نظام حياتهم » وهم وإن كانوا قد عرفوا الفضائل كلها وأشادوا بها إلا أنهم لم يدونوا نظرية أو يضعوا قواعد فلسفية ، وذلك لأنهم كانوا في شغل عن ذلك بالكفاح في سبيل العيش والصراع مع الطبيعة القاسية فصاغوا آراءهم في قصص وأساطير وحكم وأمثال ولم تكن لهم مناهج علمية ... فكان اليونان هم أول من بدأ البحث في هذه الأمور وأمثالها عن طريق التحليل والتعريف والبرهنة » . (١٤)

والحقيقة أن هذا التصور مخالف لما ترويه كتب الحضارات القديمة من أن معيشة الأمم الشرقية كانت أسهل من معيشة الأمة اليونانية فبلاد الشرق كانت تزخر بالأنهار ووسائل العيش التي لا تتطلب عناء ومشقة حتى في الأراضي التي تغلب عليها الصحراء الآن مثل صحراء الجزيرة العربية ، فتروى كتب الحضارات القديمة أن التصحر إنما غلب عليها ولم يكن أصلاً فيها فهذه الصحراء كانت تزخر بالأنهار الدائمة المجرى ويقول

الدكتـور حسن ظاظـا إنه « كان هنـاك نهران كبيران يشقان جزيـرة العرب من أقصـاها إلى أقصاها » .

ومن الأمارات القوية على خصب الجزيرة ووفرة المياه والأنهار في الأزمان الخوالي .

١ - الوديـــان الكثيـــرة المنتشـــرة .

٢ - وجود قيعان بعض البحيرات والبحار المندثرة كالبحيرة اليابسة قرب تيماء وبقايا البحر « أبو بحرة » الذي وجده فيلبي في الربع الخالي .

٣ - ضرائب المدن الموجودة هنا وهناك في تيماء وغيرها [١٥] .

والنصوص القديمة ومنها الـروايات اليونانية والرومانية تـؤيد وجود أنهار طويلة في بلاد العرب وأنها كانت مـن مناطق الغابات المكتظة بالأشجار فكـانت جبال الطائف تمون مكة بالأخشاب الصـالحة للبناء والوقود، كما أن المنطقة الواقعـة بين «العلا» و «معون» أو «معان» من المناطق الصحـراوية في الوقت الحاضر من أراضي ثمود قديماً كانـت من مناطق الغابات المكتظة بالأشجار [١٦].

وقد ذكر «هيردوت» خبر نهر في بلاد العرب سماه «كورس» وقال إن ملكهم قد عمل على نقل الميـاه من هـذا النهر العظيم إلى الصحـراء على مسيرة اثنى عشر يومـاً من سـاحل النهـر، كما ذكر بطليمـوس اسـم نهر سماه «لار» ويرى البعـض أن هـذا النهر هـو « وادي الدواسر » الحالي الذي يمس حافة الربع الخالي [١٧] .

وهناك تطور جوي حدث في جزيرة العرب وشمال أفريقية وشمل تأثيره جميع الشرق الأدنى يقول عنه العلامة « جايلد » وهو حجة في هذا الموضوع .

« في الوقـت الذي كان فيـه شمال أوروبا مغطى بطبقـات الثلوج إلى مساحـات بعيدة وصلت إلى الهارز وكـانت جبـال الألب والبرانـس مغطاة بجبـال من الثلـج، كان ضغـط القطب الشمالي الشـديد يسـوق أعاصير الأمطـار التي تهب على أوروبـا الوسطـى ويجعلها تجتازها وتعبر إلى حوض البحر الأبيض المتوسط وتستمر في سيرها دون أن تستنزفها جبال لبنان فتصـل إلى بلاد مـا بين النهريـن وجزيـرة العرب حتـى بلاد فـارس والهند، فكـانت الصحراء التي يلفها العطش الآن تتمتع بأمطار منتظمة ... وكانت موزعة على جميع فصول السنة بدلاً من أن تكون مقصورة على فصل الشتاء » [١٨] .

وقد أخـذ العلماء بالإجماع بنظـرية « جـايلد » القائلـة بأن أحـوال الجزيرة في الـدهور الماضية كانت تختلف اختلافاً كلياً من حيث وفرة المياه والخصب عما هي عليه الآن [١٩] .

واذا كانت الجزيرة العربية تتمتع برغـد العيش على هذا النحو مما لا يتطلب معه عناء كبيراً أو مشقة فقد كانت مصر وبلاد الرافدين أوفر حظاً وأحسن حالاً .

يقـــول د . أحمــــد ســـوسة :-

« وقد كان للعوامل الطبيعية دور مهم في نمو الحضارة المصرية وضمان سبل العيش في وادي النيل دون جهد كبير فالنيل يفيض في شهري يوليو وأغسطس فتغمر مياهه المشحونة بالغرين الأراضي الزراعية الواقعة على شاطىء الوادي وتمتد إلى حافة الصحراء وفي طريقة تقسيم الأراضي إلى حيـاض تغمرهـا المياه ثـم تنحسر عنها في شهـور الشتاء مخلفـة وراءها الغرين والنباتات الشتوية دون حاجة إلى مجهود في السقي مما يكفي لنمو النباتات ونضجها وقد بقيت هذه الطريقة معمولاً بها آلاف السنين وهي المعروفة بري الحياض [٢٠] .

وما يقال عن خصـب الصحراء العربية ومصر يقال على بلاد اليمـن ووديانها الخصبة وسـدودها الكثيرة التـي كانـت تـوفر ميـاه الأمطـار بعد انـدثار الأنهار حتـى لقـد قامـت حضارات حمير وتبع وقد قال أحد الشعراء :

وفي البقعة الخضراء من أرض يحصب

ثمانون سداً تقذف الماء سائلاً [٢١]

ولم تكن بلاد فارس والهند أقل حظاً من خصب التربة ورفاهة العيش من بلاد العرب ومصر واليمن فمازالت هذه البلاد وفيرة الأمطار جيدة الأرض سهلة الزراعة .

والغريب المعجز هنا أن القرآن الكريم أشارإلى طبيعة هذه البلاد في جزيرة العرب وفي مصر وما كانت عليه من سعة في العيش ورخاء في الرزق .

وتعـد سورة الشعـراء والـدخان بـالإضـافـة إلى كثير من السـور التـي تتحدث عـن الحضارات القديمة تسجيلاً لما كان عليه أقوام من العرب ومصر من بسطة في الحياة .

قال تعالى عن قوم صالح ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ (سورة الشعراء ١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨) وقال تعالى عن قوم فرعون ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ (سورة الشعراء ٥٧ - ٥٨) .

أين الكفاح الشاق مـن أجل العيش الذي يشغل أهل هذه البـلاد عن النظر الفلسفي مع أن طبيعـة البلاد في جملتها لا تختلف كثيراً عـن طبيعة بلاد اليونـان بل ربما كانت لقسوة الشتاء وتكاثر الجليد أثرها في اليونان كما يذهب ابن خلدون .

اذن لا يصح القول بأن الكفاح من أجل العيـش والصراع مع الطبيعة القاسية في بلاد

الشرق هو الذي عاق الشرقيين عن النظر العقلي والتفلسف.

د- وإذا كانت التصورات السابقة لا تصلح تبريراً للسبق اليوناني الفلسفي فقد دفع ذلك إلى القول بأن اليونان لم يسبقوا غيرهم الى التفلسف ولم يكن لهم فضل كبير في النظر العقلي الخالص وإنما كان لأمم الشرق مثل حظهم من الفلسفة.

ويحاول أصحاب هذا التيار إنكار الظاهرة نفسها ويبحثون فيما صنعه المصريون القدماء من نظريات في العلوم وما صنعه البابليون من نظريات في القانون (حمورابي)(٢٢) مستنداً لمدعاهم أن الفلسفة لم تكن حكراً على اليونان.

وهذا التصور يدحضه النتاج الفلسفي نفسه عند الشرقيين واليونان.

فالنتاج الفلسفي الشرقي كما قلنا من قبل مختلط بالدين أو بالعمل. فالفلسفة الشرقية فلسفة دينية أو عملية. لكن الفلسفة اليونانية في أغلب أطوارها وفي أوج ازدهارها فلسفة عقلية تعنى بوضع المنهج العقلى والاستدلال وقواعده ولا تعني بالنصوص الدينية أو القواعد العملية.

وهذا مما لا يحتاج في الفلسفتين إلى برهان.

والسؤال بعد مناقشة كل هذه التصورات؟

إذن ماذا؟

- إذا لم يصح تعليل سبق اليونان الفلسفي على أمم الشرق بتفوق العنصر الآرى.
- ولم يصح تعليله بانشغال أمم الشرق بالتجربة عن الفكر وبالعمل عن النظر.
- ولم يصح تعليله كذلك بكفاح أمم الشرق في سبيل العيش وصراعهم مع الطبيعة القاسية.
- ولم يصح في مجال البحث أيضاً أن للشرقيين فلسفة خالصة بعيدة عن العناصر الدينية كفلسفة اليونان..

إذن ما هو التعليل الذي يسوقنا إليه البحث؟

* مانراه تفسير لهذه الظاهرة:

إننا لكى نصل الى السبب الجوهري الذي سبب اندماج الفلسفة الشرقية بالدين وسبب في الوقت نفسه انفصال الفلسفة اليونانية عن الدين وخلوصها للعقل فلابد أن نصطنع قائمة الحضور والغياب في مجال الفلسفة الشرقية والفلسفة اليونانية.

إن العنصر الذي يحضر دائما في الفلسفة الشرقية هو الدين وهو نفس العنصر الذي يغيب في الفلسفة اليونانية.

فعنصر الجنس الآرى لا يشكل عنصراً مهما لأنه قد يحضر في الفلسفتين فلا يكون سبباً في أن تكون الفلسفة اليونانية عقلية خالصة والفلسفة الشرقية عقلية دينية معا.

فالهنود كما قلنا آريون كاليونان ومع ذلك ففلسفة الهنود فلسفة ممزوجة بالدين وفلسفة اليونان خالصة للعقل.

فليست الآرية سبباً إذن !

كما أن عامل الطبيعة عامل حاضر في كلا الفلسفتين فالطبيعة في بلاد اليونان متشابهة مع الطبيعة في بلاد الشرق بل قد تشكل بلاد اليونان ومصر معاً طبيعة واحدة تمثل حوض البحر الأبيض المتوسط إلى درجة أن زعم الدكتور طه حسين أن الثقافة واحدة وقال (ثقافتنا «يعني في مصر وشمال أفريقية»)، امتداد لثقافة حوض البحر الأبيض المتوسط[٢٣].

لكن العنصر الذي يغيب أو يحضر فيسبب غيابه أو حضوره الظاهرة محل البحث هو الدين.

إن الدين يغيب في الحضارة اليونانية فيسبب غيابه نشأة فلسفة عقلية خالصة، ويحضر في الحضارات الشرقية فيسبب حضوره نشأة فلسفة متأثرة بالدين بل مشبعة به وخادمة له.

* وتفصيل ذلك والأدلة عليه.

إن أمم الشرق كان لها أديانها التي احتوت على عناصر كثيرة صحيحة وكانت إلى حد كبير « شبه معقولة » تقدم في مجال الأخلاق ومجال تفسير الوجود وتوضيح المصير عناصر كانت تقترب أحياناً من الصحة.

فالديانات المصرية القديمة عرفت اليوم الآخر وأوضحت معنى العدالة وجسدته في محاكمة يوم الدينونة ووزن الأعمال بميزان دقيق كما وصلت إلى القيم بل قاربت عند اخناتون معنى التوحيد والوصايا التي جاءت في أوراق البردى من مثل « لا تنظر إلى حليلة جارك » وغيرها لا تقل سموا عما جاءت به الأديان.

والفلسفات الشرقية والديانات في فارس كان لها نصيب كبير في تحديد الأخلاق الفاضلة ورسم معالم الحياة الآخرة وحددت دور العبادة في تهذيب الإنسان إلى درجة أن كثيراً من الباحثين في تاريخ الأديان يطلقون على « زرادشت » نبي قدامى الإيرانيين[٢٤]

لأنه أتى بكثير مما أتى به الأنبياء من أخلاق وتعاليم .

وحكماء الصين والهند الأقدمون وصلوا في سر الألوهية إلى درجة أنهم نسبوا وجود الكون إلى إله أعظم، منه تجلت الأشياء، وفاضت الكائنات .

تخطىء هذه الديانات تارة فتنسب الكون إلى اثنين : النور والظلمة، وتارة أخرى بعبادة الشمس أو النار، ولكنها تبقى في الأغلب الأعم خيراً من أديان اليونان، تلك الأديان التي كانت تستمد من الأساطير والخرافات الشعبية التي كانت تفتقر إلى تحديد علاقة الإله بالكون .

ولئن كانت الأساطير تشكل ظاهرة عامة في الحضارات والأديان القديمة عند الشرقيين واليونان على السواء فقد كانت الأسطورة في الشرق تختلف عن الأسطورة في بلاد اليونان .

كانت الأسطورة في الشرق مجرد شكل ينتهي إلى مضمون عقدي ... كانت قصة تؤدي إلى هدف .

فقصة إيزيس وأوزوريس المصرية مثلاً ترمز إلى معاني الخلود والبقاء وترمز إلى معاني القوة والوفاء للنيل كما ترمز إلى البعث، أما القصة في الأسطورة اليونانية فلم تكن تقدم من الأخلاق ما تقدم أغلب الأساطير في الأديان الأخرى .

كانت الأساطير اليونانية لا تحدد بالضبط دور الإله في الكون والعلاقة بينه وبين الإنسان بل بدأ الإنسان في الأساطير اليونانية أقرب إلى الإله، وليس للآلهة اليونانية أصلاً علاقة بتدبير العالم فهي في عالمها تبدو سعيدة أحياناً بهذا العالم الخاص بها وتبدو أحياناً أخرى يصارع بعضها بعضاً، إلى درجة موت بعضها في هذا الصراع .

يقول هـ. وهـ. أ. فرانكفورت : (٢٥)

« ومهما يكن الأمر فإن في الشعائر والطقوس الإغريقية تفاصيل عديدة لا سابق لها في أي مكان آخر وهي تفصح في جلها عن تقلص الشقة بين البشر والآلهة » .

ويقول : (٢٦)

« ثم إن الآلهة الأوليمبية رغم تجليها في ظواهر الطبيعة لم تكن هي التي خلقت الكون، وليس في مقدورها أن تتصرف بالإنسان كأحد مخلوقاتها بنفس حق الملكية الذي رأينا آلهة الأقطار الأخرى تتمتع به، بل إن الإغريقي يدعى بسلف مشترك بينه وبين الآلهة وهو ذلك يعاني معاناة أشد بسبب عجزه وقصوره » .

كانت الأساطير اليـونانية إذن عاجزة عن أن تقدم التفسير المعقول الـذي يريح عقول الباحثين عن مبـدأ الكون فما دام الإنسان والآلهة من أم واحـدة هي الأرض وهي أم الآلهة والبشر كما يشير إليها «بنـدارس» أو أن الماء هو الأوقيـانوس الـذي انطلقت منـه الآلهة كما يذكر «هوميروس» فمن أين الأرض إذن ؟ ومن أين الماء ؟ وما أصل هذا الوجود ؟

لقد تحدثـت الأساطير الشرقيـة عن إلـه أعظم تحدث عنـه الكائنـات رغم تجسـده في مظاهـر الطبيعة التـي فاضـت عنه فسـدت إلى حد أرضـى العقول في ذلـك الزمـان فجوة العلاقة بين الكون والإله لكن الأساطير اليونانية تركت الفجوة شاغرة في مبدأ الكون ؟

والدليـل على ذلك أن هذه هـي النقطة بالـذات هي التي أقضـت مضاجع الفـلاسفة اليونان الأوائل ودفعتهـم إلى محاولة استكناه المبدأ الأول أو أصـل الوجود منذ طـاليس بل قبل طاليس منذ «هزيود» .

يقـول « فرانكفـورت » :-

« وقد وجـه الفلاسفة همهـم كما فعل هزيود نحـو مشكلة الأصل والتكـوين غير أنها اكتسبـت لديهم صيغـة جـديدة . فـالأصـل الذي انصرفـوا إلى البحـث عنه لم يفهمـوه في مصطلحات أسطورية .

فهم لم يلجأوا إلى وصـف أب إلهي أول ، كما أنهم لم يبحثوا عن الأصل بمعنـى الحالة الأولية التي تحل محلها حالات لكينونة لاحقة .

لقد جد اليونانيـون في طلب أساس للوجود حلولي وأبدي ، فاللفظـة الإغريقية التي تعنى « الأصل » ليس مدلولها البداية بل المبدأ القويم أو السبب الأول [٢٧] .

كان الفيلسـوف الشرقي إذن يجد في الديـن ما يحلم بـه الفيلسوف من تحقيـق السعادة لنفسه وللبشر ويجد ما يغنيه عن النظر العقلي الخالص لحل معضلات الوجود ، فكان الدين يستحوذ عليه ويملك عليه أقطـار نفسه فيقدم نتاج عقله لخدمة هذا الديـن وتأييده وتأكيد دوره لخدمة الحياة والدينونة في الوقت نفسه .

لكن الفيلسوف اليوناني كان يجد في الدين عـاملاً سلبياً لأنه يقوم على آلهة غير معقولة لكل إله نشاطـه الخاص فإله للحب وإله للحرب وثالث للـرعد ورابع للجمال وهكذا آلهة شتى تتصارع فيما بينها أحياناً وتتصالح أحياناً أخرى .

ومن هنـا كانت صيحـة الفيلسوف اليونـاني في وجه هذه الـديانات الشعبيـة أن هذه خرافـات لا تقدم للإنسـان شيئاً . فراح يعتمد على عقلـه الخالص في تنظيم حيـاته وتفسير

الكون من حوله وتحديد مصيره وهـذا يفسر ظهور أول صيحة «الـدين خرافة» مـن بلاد اليونان.

قال الفيلسوف اليوناني « هيراقليطس » وهو يزدري الشعائر الدينية في عصره ويسخر منها : « المشاة بالليل والسحرة وكهنة باخوس وكاهنات دنان الخمر، كل هؤلاء يتاجرون بالأسرار » (٢٨).

وقـال :-

« إن الأسرار الذائع أمرها بين النـاس هي أسرار بغير قـدسية، والنـاس يتوجهـون بصلواتهم إلى هـذه الأوثان، كأنما يتـوجه الإنسان بـالدعـاء إلى بيته، إذ هو لا يـدري ماذا عسى أن تكون الآلهة، أو يكون الأبطال » (٢٩).

كمـا قـال :-

« العالم واحد لم يخلقه أي إله أو أي إنسان، فقد كان، وهو الآن، وسيكون، لهباً حياً إلى الأبد يتوهج وينطفىء تبعاً لنواميس محددة » (٣٠).

ولعل هـذا يفسر لنا ظاهـرة أن المدارس المادية والإلحاديـة التي وجدت بعـد ذلك في تاريخ الفلسفة الأوروبية خاصة منبعها القـديم ومستقرها الأساسي إنما هو في بواكير الفكر اليـوناني والمدارس الطبيعيـة الأولى (٣١) التي كانـت تبحث عن أصل الكـون وذلك شيء طبيعي لأن هذا كان هو البعد المفقود في الدين في بلاد اليونان.

على أن هناك أدلـة إضافية أخـرى تؤكد ما ذهبنـا إليه من أهمهـا أن الفلسفة اليونـانية نفسهـا وهي فلسفـة عقليـة خالصـة ذات منهج نظـري صرف عنـدما انتقلـت إلى الشرق والإسكندريـة خاصة اصطبغت بـالدين ونشأ عنهـا طور جديـد هو الفلسفة الأفلاطـونية الحديثة التي تبدو عليها التأثيرات الدينية أوضح ما تكون.

بل إن هذه التـأثيرات الدينية اختلفت باختـلاف الدين المؤثر على هـذه الفلسفة فعند «فيلـون» اليهودي وهـو المبشر الأول بـالفلسفة الأفـلاطونيـة الحديثـة ظهرت التـأثيرات اليهودية على فلسفته في الألوهية والأخلاق.

يقـول « إميـل بريهييـه » :-

« نرى فيلون في كـل المباحث الطبيعية والأخلاقيـة التي يؤدي إليها تـأويل النصوص يتابع هدفاً واحداً يدل عليـه بوضوح كثير في الفقرات الأخيرة : « بيان أن الإلهي موجود، وأنه يوجد إله واحد، وان العالم وجد من عدم، وأنه متوحد ومحكوم بالعناية الإلهية » (٣٢).

ورغم ما يقـال من أن فيلون لم ينطلق في فلسفته مـن الفلسفة اليونانية بقـدر ما انطلق من التيارات السكنـدرية [٣٣] إلا أنه استطاع أن يجمع بين الوحـي الديني والفلسفة العقلية بحيث استخدم رموز الفلسفة اليونانية مثل اللوجوس والوسائط في تفسير وتأويل العقيدة اليهودية بحيث يمكن القول إن الفلسفة اليونانية اكتست ثوباً يهودياً أو أن اليهودية اكتست ثوباً يونانياً.

وإذا كانـت الفلسفة اليونانيـة قد امتزجـت باليهوديـة على يد فيلون ، فقد امتـزجت بالمسيحية على يد فيلسوف الأفلاطونية الحديثة الأكبر ... أفلوطين.

وإذا كان فيلـون وأفلوطين قـد اتفقا على وجود الـواحد المبدع الـذي تفيض عنـه كل الكائنات فالوجود المادي مشتق من الوجود الأول وجود الله.

وإذا كانا قد اختلفا في منطلق التفكير إذ بدأ فيلـون بالحقيقة الدينية وجعل الفلسفة في خدمـة الدين وبـدأ أفلوطين بـالحقيقة الفلسفية ليصـل إلى الحقيقة الدينيـة ، فقد طبعـا معاً الفلسفة اليونانية بالطابع الشرقي حتى صارت فلسفة دينية كفلسفة الشرق.

ولا عبرة بأفكـار بعض المؤرخين مثـل « اتسلر » مـن أن تكون المذاهـب الشرقية قـد أثـرت على الفلسفة اليـونانيـة فإن كثيراً مـن البـاحثين المعتمديـن مثل «فـاشيرو» في كتابـه «التاريخ النقدي لمدرسة الإسكندرية» يقول [٣٤] .

«إن الفلسفة الأفـلاطونيـة كانـت فلسفة شرقيـة بكل معـاني الكلمة فهـي في روحها وجوهرها وطبيعتهـا شرقية ... ثم إن كثيراً من الأفكار التي كانـت منتشرة في البيئة الهندية والفارسية واستوطنـت المدن المتوسطة بين الشرق واليونان خاصـة مصر مثل فكرة العقول أو الوسطاء أو الملائكة ، وفكرة الصدور التي تمثل أخطر دور في الفلسفة الأفلاطونية حتى لتسري في كل أجـزائها فكـرة شرقية مأخـوذة عن المذاهـب الهندية والفـارسية وان كـانت أوضح مـا تكون في المذاهـب الهندية ... فـلا سبيل إذن لإنكـار تأثر الأفـلاطونيـة الحديثة بالعناصر والأفكار الشرقية.

وكما تأثرت الفلسفـة اليونانية بالعناصر اليهـودية والمسيحية فقد تأثـرت بنفس القدر بالإسلام حين تـرجمت هذه الفلسفة إلى العربيـة في العهد العباسي واطلع عليهـا المسلمون فكانت فلسفة الفارابي وابن سينا مزيجاً من الإسـلام والعناصر اليونانية حيث وجدنا فكرة الصدور ... صدور الكائنات عن الواحد عـن طريق العقول المشهورة يمثل أخطر فكرة في مجال التوفيق بين الدين والفلسفة حيث لا يمكن فصل العناصر الإسلامية عن اليونانية.

وهكـذا تأخـذ الفلسفة الطـابـع الدينـي كلما اتصلـت بعناصر دينيـة يمكن أن تقنـع الفيلسوف .

بل يمكـن القول هنا إنه في بعـض أحوال صفاء العقـل اليوناني نرى بعـض العناصر الدينية عند بعض الفلاسفة والأعجب هنا أن يكون هؤلاء الفلاسفة من الطبيعيين الأوائل في الفلسفة اليـونانية مثـل أكسينوفان ، إذ تجمـع المصادر على أن أكسينـوفان كان فيلسـوفاً دينياً .

يقــول الدكــتور عبــد الرحمــن بـدوي :

« والكتاب الأقـدمون متفقون أجمعين في هذا الصـدد إنه عد أول مـن حارب الشرك والتصورات اليونانية السـابقة للآلهة أو للإله ، فقام يؤكد قدم الله بدلاً مـن حدوثه ، وثباته بدلاً من تغيره ، وتنزهه بدلاً من تشبيهه ، ويمنع أن تكون صفاته صفات محدودة سواء من الناحية الطبيعية أو من الناحية الأخلاقيـة ، فهو يقول أولاً إن الله قديم ويقول : ثانياً إن الله لا يتغير بل هو ثابت لأن كل تغير هو تغير إلى أسوأ وهـذا يتنافى مع مقام الألوهية ، ويقول ثالثـاً : إن الناس قد أساءوا إلى الله فصـوره كل بحسب حالـه ، فالزنج يجعلـون الآلهة سود الشعور فطـس الأنوف ، بينما التراقيـون يجعلون الآلهة زرق العيـون ذهبيي الشعـور ، ولو استطاعت الخيل أو البقر أن تصور الله لصورته في صورة الخيل والبقر وعلى هذا فإن الناس قـد صورت الآلهة بصـورة الإنسـان ولم تكتف بهذا بـل أضـافـت أيضاً إلى الآلهة الأفعـال الإنسانية الدينية خصوصاً عند هوميروس وهـزيود ، والواقع أن هذا كله يتنافى أشد التنافى مع التنزيه الواجب لله لأن الله منزه كل التنزيه عن أن يتصف بصفات البشر ، فلكي نحتفظ للألوهية بقداستها لابد أن ننزهها عن صفات الإنسان ولما كان الله هو الكمال فان الله أيضاً واحد »[٣٥] .

وأهمية هـذا الفكر في سيـاقنا أنه يـأتي في خضم التفكير الطبيعي اليـوناني مما يثبت أن الفكر الدينـي ليس خاصاً بـالشرق وحده والفكر الفلسفي ليس خـاصاً باليونـان وحدهم وإنما يثبت بجـلاء أن الديـن في بلاد اليـونان كـان أقل مستـوى من نـاحية إرضـائه للعقل الإنساني من الأديان الشرقية ولـذلك اتجهت الفلسفة اليونانية وجهة عقليـة خالصة رفضاً لهذا الدين وبحثاً عن ما يرضى طموحات الإنسان وحاجاته التي يبحث عنها في قضايا الله والكون .

أما الأديان الشرقية فقد كانت أكثر إرضاء للعقل ولذا كان العقل ينضوي تحت لوائها ويمزج فكره بها، فكلما اتصلت الفلسفة بالدين وأرضاها خدمته وامتزجت به فاذا لم تجد الفلسفة في الدين ما يرضى تطلعاتها ابتعدت عنه.

بهذا يمكن أن نفسر: لماذا سبق اليونان إلى الفلسفة العقلية الخالصة البعيدة عن التأثيرات الدينية.

وإذا كانت هذه خلاصة البحث فان لها نتائجها ودلالاتها البعيدة في هذا المضمار:

ولعل أهم هذه النتائج والدلالات:-

- أن العقل اذا كان دائب البحث في القضايا التي تثقل كاهل الإنسان فيما يتعلق بمصيره العاجل والآجل فانه ما أن يرى في الدين حلاً لهذه القضايا حتى يسارع بطبيعته إلى الانضواء تحت ظلال الدين سواء كان ذلك في الشرق أو في الغرب عند الحضارات الشرقية أو عند اليونان على السواء.

أما إذا لم يجد العقل حلاً للقضايا التي يثيرها فانه يعتمد على نفسه بعيداً عن الدين ومن ثم تكون حلوله للقضايا غير ثابتة وغير مستقرة وهذا سر ما حدث في بلاد اليونان وهو نفسه سر التناقضات التي احتوت عليها الفلسفة الغربية المتناثرة أساساً بالفلسفة اليونانية.

- أن قدرة الشرق على الفلسفة لا تقل عن قدرة اليونان وعقلية الشرقي عقلية تنفذ إلى بواطن الأشياء وحقائقها الأولى وتجاوز الطبيعة إلى ما وراء الطبيعة وما اختلطت فلسفة الشرق بالدين إلا لأن الفلاسفة الشرقيين رأوا في الدين حلولاً لمشكلاتهم الميتافيزيقية ووجدوا فيه عناصر تهدى العقول في هذا الخضم من المشكلات.
- أن هذا الاتجاه الشرقي هو الاتجاه الذي تقتضيه طبائع الأمور ومن ثم فان البحث بعد أن وقف على المعالم الكبرى لتطور الفلسفة يثبت أن العقل في مجال الميتافيزيقا لابد أن يستند إلى الدين ويمتزج به.
- أنه لما كانت الميتافيزيقا تشكل أساساً لا يمكن إغفاله في تطور أي حضارة فان البحث يثبت أن أي حضاره فان البحث يثبت أن أي حضاره تبعد العقل عن الدين وتعتمد على العقل وحده في مجال الميتافيزيقا لم يكن لها دوام ولا استقرار.

ومن هنا يثبت لنا أنه في الشرق خاصة وفي تاريخ الحضارات الإنسانية عامة لا

استقلال للعقل بدون الدين في هذا المجال بـالذات، ويبقى للدين دوره الأساسي في تحقيق الإيمان والأخلاق.

وليس معنى ذلـك غياب العقل في أي مشروع حضاري بل يبقـى للعقل دوره المتميز في مجال الطبيعة بما يحتويه من علوم شتى يقوم عليهـا العمران الإنساني، فإن بدا له أن يفكر في ما وراء الطبيعة فله الحرية وعليه أن يسترشد بالدين.

وبهذا يمكن أن يتحقق للإنسان طور حضاري تتحقق فيه مساحة ضخمة للعقل تسع الحياة بعلومهـا العديدة ومساحة ضخمة للـدين يسلم فيها العقل للـدين فيما وراء الحياة، ليقوم هذا التطور على أغلى وأقدس ما يملك الإنسان العقل والدين، أو العلم والإيمان.



■ أهـــــم المصـــــادر ■

(١) الشيخ مصطفى عبد الرازق ، تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية .

(٢) أرنست رينـان ، تاريخ اللغات السـامية نقلاً عـن : أحمد موسى سـالم « العقل العربي ومنهج التفكير الإسـلامي »، ص ١٣٠ ، دار الجيل ، بيروت، ١٩٨٠م .

(٣) نفـــس المصـــدر ، ص ١٢٦ .

(٤) نفـــس المصـــدر ، ص ١٣٠ .

(٥) د. توفيق الطويل « الفلسفة في مسارها التاريخي » ، ص ٧، سلسلة كتابك، العدد ٧، دار المعارف بمصر .

(٦) يوسف كرم « تاريخ الفلسفة اليونانية » ، ص جـ طـ ٥ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٦٦ .

(٧) المصــدر الســابق، نفــس الصفحـــة .

(٨) د. أحمد ابراهيم الشريف، دراسات في الحضارة الإسلامية ص ٣١٢ طـ٢ ، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨١م .

(٩) ابــن مســكويه ، تهــذيب الأخــلاق ص .

(١٠) مقدمــة ابــن خــلدون ص ٥٩ - ٦٢ .

(١١) مقدمة ابن خلدون، ص ٦٠ تحقيق : حجر عاصي . دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٦م .

(١٢) نفس المصــدر ص ٦١ نفـس الطبعـــة .

وانظر : دراسـات عن مقدمة ابـن خلدون، تأليـف : ساطع الحصري من ص ٣٠٧ إلى ص ٣٣٢ طـ ٣ سنة ١٩٦٧ ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الكتاب اللبناني، بيروت .

(١٣) أحمد أمين، ضحى الإسلام ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ طـ ١٠ ، دار الكتاب العربي، بيروت ، بدون تاريخ .

(١٤) د. محمود حمدي زقزوق. مقدمة في علم الأخلاق ص ٢٨ طـ ٢ ، دار العلم، الكويت ١٩٨٠م .

(١٥) د. حسن ظاظا . الساميون ولغاتهم ص ١٥ نقلاً عن د. أحمد سوسة، حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور ، ص ٦٩ ، السلسلة الاعلامية رقم ٧٩ منشورات وزارة الاعلام، العراق ١٩٧٩ .

(١٦) د. أحمد سوسة. حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور ص ٧٠، نفس الطبعة المشار إليها آنفاً .

(١٧) المصـــدر الســـابق ص ٧١ .

(١٨) المصدر السابق ص ٧٤ وقد نقله عن د. جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام طـ ٢ . .

(١٩) المصـــــدر نفســـــه ص ٧٥ .

(٢٠) المصـــــدر نفســـــه ص ٧٥ أيضاً .

(٢١) نفـــس المصـــــدر ص ١٧٣ .

(٢٢) د. توفيق الطويل، الفلسفة في مسارها التاريخي، العدد ٧ من سلسلة كتابك، دار المعارف بمصر .

(٢٣) د. طـه حسـين، مسـتقبل الثقافـة في مصـر .

(٢٤) د. محمود بن الشريف، زرادشت نبي قدامى الإيرانيين .

(٢٥) في كتابه الذي ألفه مع آخرين بعنوان « ما قبـل الفلسـفة » ... الإنسان في مغامرته الفكرية الأولى . ترجمة جبر ابراهيم جبر ص ٢٧٥ طـ٢ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٠ .

(٢٦) المصـــدر الســـابق ص ٢٧٦ .

(٢٧) نفـس المصـــدر ص ٢٧٨ .

(٢٨) د. علي سامـي النشار ود. محمـد علي أبو ريـان، ود. عبده الـراجحي هيراقليطـس فيلسوف التغيير ، ص ١١٦، دار المعارف بمصر .

(٢٩) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٣٠) د. رجاء جارودي، النظرية المادية في المعرفة ص ٦٣ ، دار دمشق للطباعة والنشر .

(٣١) تنظر : الموسوعة الفلسفية المختصرة (كلمة : المادية) .

د. زكي نجيـب محمود وآخريـن. الهيئة المصريـة ، القاهرة ومـوسوعة السيـاسة جــ٥ ص ٦٣٠ أسسها الدكتـور عبد الوهاب الكيالي، دار نعمة للطباعة، بيروت .

(٣٢) إميل بريهييه، الآراء الدينية والفلسفية د. « فيلون الاسكندري» ص ٤٧ ترجمة د. محمد يوسف موسى ود. عبد الحليم النجار، مكتبة مصطفى الحلبي ١٩٥٤ القاهرة .

(٣٣) المصــدر الســابق ص ٣٩٧ .

(٣٤) أنظر : د. عبد الرحمن بـدوي، موسوعة الفلسفة جـ١ ص ١٩٣ ، ١٩٤طــ ١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٤م .

(٣٥) المصـــدر نفســه ص ٢٦٨ .

